الفصل الرابع

مختارات من ضياء الدين

١ ــ ضياء الدين الكاتب

من رسائله الديوانية

المالُ

قال : «ومِنْ ذلكَ ما كتَبتُه عن الملكِ الأَفْضَلِ علىٍّ بنِ يوسُفَ إلى الديوانِ العزيزِ النبويّ ببغداد فى فصلٍ من كتاب هو :

«وقَدْ عُلِمَ أَنَّ المالَ الذى يُختَزَنُ كالماءِ الذى يُحتَقَن ، فكما أَنَّ هذا يأْجَنُ بتعطيلِ الأَيدى عن امتياح مشارِبِهِ ، فكذلِكَ يأْجَنُ هذا بتعطِيلِ الأَيْدى عن امتياح مواهِبِه ، وأى فرقٍ بين وجودِهِ وعدمِه لوْلاَ أَنْ تُمْلَكَ به القلوب ، وتَقِلَّ بِه الخطُوبُ ، ويركبَ به ظَهْرُ العَزْم الذى ليْسَ برَكُوب . ومن بَسطَ اللهُ يَدَهُ فيه ثم قبضَها بِحَله . فإنه يقفُ دونَ الرجالِ مَغْمورًا ، ويقعُدُ عن نَيْلِ المعالِى مَلُومًا محسُورًا ، وإذا أَدْرَكَتْهُ مَنِيَّةٌ مَضَى وكأَنه لم يَكُنْ شَيئاً مذكورًا . ومذ ناط. الله بيد الخادِمِ ما ناطَهُ من أمر بلادِهِ لم يدَّخِرْ مِنها إلاَّ مربطَ. أَشقَرِه ومَرْكَزَ أَسْمَرِه ، وما عَدَاها فإنَّه مصْرُوفٌ إلى قوَّة الإسلام فى سَدِّ ثُغُورِهِ وتكثِير جنودِه ، وإيقادِ حَرْب عَدُوِّهِ بعد خمودها ، واستِباحَةِ جمرها عند وقودِهِ ، وما يفْضُل عن

ذلك فإنه الناس يشتركون فى وَبْلِهِ وغمَرِهِ والمسْلِمُ أخو المسْلِمِ يساويه فى حقِّه من بيتِ المالِ وإن خالفه فى مَزِيَّةِ قَدْرِهِ .

ولا سَبيلَ على الخادم وهو يفعَلُ ما يفْعَلُه أن يُدَلِّسَ من هذا المال بتبعة المطْلوبِ ، أو يلتَحق بالقوم الذين يكترونَه فَيُجْزَى عَلَيْهِ بِكىِّ الجِباهِ والظهور والجنُوبِ ، ولم يأْت به الله عَلى فَتْرةٍ من مِثْلِهِ إلا لِيَمْحُوَ به سَيِّئاتِ الدين ، ويعيد به الإسلامَ إلى وَطَنِه بعد أن طالَ عهده بمفَارَقَةِ الوطَنِ . وليكون حسَنَةً من حسَناتِ أمير المومنين تَرْقُمُها الدنيا فى ديوانِه ، وتَنْقُل بها فى الآخرةِ كِفَّةُ مِيزانِه » .

اعتذارٌ واستعطافٌ

وقال :

ومن ذلك ما كتبتُه عنه ـ الملك الأفضل ـ إلى عمه الملِكِ العادِل أبى بكرِ ابن أيوبَ من كتابٍ يتضَمَّنُ استِعْطَافَهُ والتَّنصُّلَ إليه وهو :

« من شِيمةِ الأقْدارِ أنْ تَذهَبَ بِبصَائِرِ أولى الألْباب ، وتُمثِّلَ لهم الخَطَأَ فى مثالِ الصواب ، ولولا ذلك لما زَلَّ الحَكِيمُ ، واعْوَجَّ المسْتَقيمُ . والمملوكُ يُقَبِّلُ اليَد الكريمة المولَوِيَّةَ الملكيَّةَ العادِليَّة ، لا زال عُوفُها مأْمولاً ، وإحْسَانُها عند الله مقبولا ، وفعْلُها فى المكرماتِ مبتدَعاً إذا كان فعل الأيادى مفْعُولا . ونَستغيثُ إلى عَفْوِها الذى يكفى فيه لَفْظَةُ الاعتِذارِ ، ولا ينْفَدُ بمواظبَةِ الإصْرَارِ ، ولو عَرفَ ذنْبَهُ بادِياً لقرع سِنَّ الندامَة ،

وعادَ على نفسِهِ باللائمةِ. ولَمَا كان عجيباً أن يكونَ مُلِيماً وأن يكونمولانا كريماً . لكنه حمَل إصْرَةَ الذَّنْبِ وهو بريءٌ من حَمْلِها وخافَ أن تكونَ هذه كأخواتِها التى سَلفتْ من قَبلها ، والأُمور المتشابهة يقاسُ البَعْضُ منها على البَعْض . والمَلْسُوعُ لا يسْتَطِيعُ أنْ يَرى مَجَرَّ حَبْلٍ على الأَرْضِ .

ولم يَجْترِمْ المملوكُ الآنَ جريمةً سِوَى أن فرَّ إلى الاعتصام ، وألقى بيَدِهِ إلى أقوامٍ لم يكونوا له بأَقْوام . وإذا ضاقَ على المرءِ أقْربُه ، كَان الأَبعَد له من ذوى الأَرحام . وليسَ بأَوَّلَ من ذهَبَ هذا المذهب ، ولا بأَوَّلَ من حَمَلَ نَفْسَه على ركوبِ هذا المَرْكبِ . ولئنْ قالَ بعْضُ الناسِ إنه عجَّل باعتصامه وفراره ، وأنَّه لو صَبرَ لحمَدَ مغبَّةَ اصطباره. فهذا قولُ من لم يعْرِفْ حَالَ المَلُوكِ فيقيمَ له عُذْرا ، ولا ابتلى بما ابتلى به قوارضُ مولانا مرة بعد أخرى . ولقد تكاثرتْ عليه هذه الأَقْوال المؤَنِّبَةُ حتى ملأَ طرْفَهُ كحْلُ السُّهادِ ، وجنْبَهُ شوكُ القَتَادِ . وأَصبَحَ وهو يَرى أنه زَلَق فى خطيئتِهِ زَلْقا ، وغَصَّ بنَبعِهِ من أَجْلِها شرقا ، وبَدَتْ له سَوْءتُه حتى طَفِقَ يَخْصِفُ عَلَيْها ورَقا . ومع هذا فإنَّه واثقٌ أَنَّ حِلْم مولانَا لا يوتى من الزللْ ، وأَن حَصَاةَ الذُّنُوبِ لا تُخِفُّ بوْزنِ ذلِكَ الجبلْ ، وها هو قد جَاءَ نازِعاً ، وللنازِعِ العُتْبَى ، وعادَ مستشفِعاً ولا شَفِيعَ أكرمَ من القُربَى » .

تقليد بالسلطنة

من أمير المومنين الخليفة إلى السلطان صلاح الدين

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يَبْدأُ بحمْدِ الله الذى يكون لِكلِّ خطبةٍ

قِيادا ، ولكُلِّ أمْرٍ مِهادا ، ويستزيدُه من نِعمهِ التى جعلت التقوى له زادا وحملته عِبءَ الخِلافة فلم يضعف عنه طَوْقاً ، ولم يألُ فيه اجتهادا ، وصغُر لديه أمْرُ الدنيا فَلَمْ تَتَصَوَّرْ له مِحْرابا ، ولا عرضَتْ عليه جِيَادا ، وحقَّقَتْ فيه قول الله تعالى (تِلكَ الدارُ الآخِرةُ نجْعَلُها للذين لا يُريدونَ عُلُوًّا فى الأرض ولا فسادا) ثم يُصلِّى على من أُنزلت الملائكةُ لنَصْرِه أمْدادا ، وأُسْرِىَ به إلى السَّماء حتى ارتَقى سبْعاً شِدَادا وتَجَلَّى له رَبُّه فلم يُزغْ منه بَصرًا ولا أكذَبَ فؤادا ، ثم من بَعْدِه على أُسرته الطاهرةِ التى زكَتْ أوراقاً وأعوادا ، وورثَت النُّورَ المبِينَ تِلاَدا ، ووُصِفَتْ بأنَّها أحَدُ الثَقَلَيْن هدايةً وإرشادا ، وخُصُوصاً عَمُّه العَبَّاسُ المدْعُوُّ له بأنْ يَحْفَظَ نَفْساً وأولادَا ، وأنْ تبقى كلمة الخلافَة فِيهم خالدةً لا تَخَافُ درْكاً ولا تَخْشَى نَفَادا .

وإذا استوفى القلم مداده من هذه الحمْدَلةِ ، وأَسْنَدَ القولَ فيها عن فصاحَتِه المرْسَلةِ ، فإنه يأْخذ فى إنشادِ هذا التقليد الذى جعله حليفاً لقرطاسه ، واستدام سُجُودَهُ على صَفْحته حتى لم يَكَدْ يرفَعُ من رأْسِهِ وليس ذلك إلا لإفاضتِهِ فى وصف المناقب التى كَثُرتْ فحسن لها مقَامُ الإكثارِ واشْتبه التطويل فيها بالاختصار . وهى التى لا يفتقرُ واصِفُها إلى القولِ المعاد ، ولا يستوعِرُ سُلُوكَ أطوادها ، ومن العَجَبِ وجودُ السَّهْلِ فى سلوك الأطواد ، وتلك مناقبك أيها الملك الناصِر الأَجَلُّ السَّيِّدُ الكبيرُ العالِم ، العادِلُ المجاهدُ المرابطُ صلاحُ الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بسكرك ، ويباهى بك أولياءه تنويهاً

بِذكرِكَ ، ويقولُ أنت الذى تستكنى فتكون للدولة سَهْمَهَا الصائبَ وشهابَها الثاقِبَ ، وكنزَها الذى تذهب الكنوز وليْسَ بذاهِب ، وما ضرها وقد حضَرْت فى نصرتِها إذا كان غيرُكَ هو الغائِب ، فاشكرْ إذًا مَساعيك التى أَهَّلَتْكَ لما أَهَّلَتْكَ وفضلتْك على الأَولياءِ بما فَضَّلتْكَ » .

الوصف

حربُ الصليبيين

فمنْ ذلَك مَا ذكرته فى وصْفِ العَسْكر وهو :

« فصرنا فى غَمامةٍ من الكتَائِبِ ، تُظلُّهَا غمامةٌ من الطيور الأَشائِب ؛ فهذِه يَضُمهابحرٌ من حَديد ، وهذه يَضُمُّها بَرٌّ من صَعيد ، وما مرَّت ببلدٍ إلا أَزَالَتْ أَرْضَهُ من سمائِه ، وأَلبَسَتْ نهارَهُ كثَوْبِ ظلْمائِه ، وبدَّلتْ أحراره بعبيده وحرائره بإمائه ، وكذلكِ فعلَتْ بمدينة (فُلانَه) وقَد ضَرب الأَمْنُ عليها أَسوارا وبَعُدَ عهْدُهَا بالنوائِب فلم تَدْخُلْ لها دِيَارًا ، فهِى تُخبرُ عن بُلَهْنِيَةِ الخفْضِ ، ولم تُرَعْ عنه بالانتقال ، ولا رأَت السيْفَ وقد أَلقى لونَهُ فى ذوائب الأَطفال ، فما شعُرَ أَهْلُها إلا وقد رَجَمها الجيشُ بكاهِلِه ، ورَماها بوابلِه قبل طلِّه ، وطل السحاب قبل وابلِه وبرزت خيْلُ القومِ ، وَلَها زِىُّ فرسانِها ، وهى مستَبقةٌ إلى طرادها كاستباقِها إلى ميدانِها وما منهم إلا من تتأَود القناةُ من يَدِهِ بيْن لَهْذَميْنِ ، وتستقِلُّ السُّرُج منه ومن جوادِه بيْن مُطْهَمَيْنِ ، فجرت المغاويرُ إلى المغاوير ، وتلاقت الرياح

بالأعاصِير ، وكانَ الطَّعْنُ بينهم عِناقاً ، واللَّبْثُ وفاقاً ، وَسَبَقَ أَلمُ الموتِ أَلمَ الجراحِ ، ونفذت غير مختضبةٍ لسرعتها أَسِنَّةُ الرِّماح ، وحَصَّلَ القومُ القبضَةَ ، وذَمّوا عُقْبَى النهضةِ ، وجِيء بالأَسْرَى مُقَرَّنينَ بالأَصفادِ موقنين أَن رُءُوسَهُمْ عوارى على تلك الأَجساد ، ولو استطاع رأْسُ أَحَدِهم أن ينكر عُنقَهُ لأَنْكَرَه ، ولا يودّ وهو المعظَّم أَن يقال ما أَعظمَه . بل يُقال مَا أَحقرَه . وتصرفت أَيدى المسلمين فى القتل والنّهابِ ، وكان للسيف رقاب وللسبى رقاب » .

وصف معركة

« ولما التقى الجمْعان اصطفقت يمينٌ وشمالٌ ، وزَحَفتْ جبالٌ إلى جبالٍ . وكثرت النفوسُ على المنايَا حتى كادَتْ لا تفِى بالآجالِ ، وأقدمَت الخيلُ إقدام فِرسانِها . وأَظْلَمَ النَّقْعُ فلم تُبْصِرْ إلا بآذَانِها ، ونَالت النحورُ ثارها من كعوب الرماح ، واشتبكت الأَسنة فلا طريقَ بينها لهبٌّ الرياح ، واستوْصِلَتْ شجرةُ الكافِرين بالقطْع لا بالجِدادِ ، وحَالَ حدُّ السيف دونَ حديد الأَصفَادِ ، ونقِلوا إلى جهنَّم يَصْلَوْنَها وبئس المهاد وعاد المسلمونَ وقد ملأُوا الأَغماد نصرًا والصحائفَ أَجْرًا والأَيدى وقْرا ، والقلوب جَذَلاً ، والأَلسنَةَ شُكْرا . وكانَ ذلك اليوم فى الأَيام عَلَماً ، وفى الأَقْسامِ قَسَما ، ولم يره الزمَانُ منسوباً إليه إلا رجع شبَاباً بعد أن ناهَزَ هَرَما » .

المنجنيق

قال : ومن ذلِكَ ما ذكرته فى وصف المنجنيق من جملة كتاب فقلت : «ونُصِبَ المنجنيقُ فجثَمَ بين يَدَى السورِ مُناصِباً ، وبَسطَ . كفَّهُ إليه مُؤَاتياً ، ثُمَّ تولّى عُقُوبتَه بعصَاه التى تفتِكُ بأحجارِهِ ، وإذا عَصَى عليها بلدٌ أخَذَتْ فى تأْدِيبِ أَسْوَارِه ، فما كان إلاَّ أن استمرت عُقُوبتُها عَليه حتى صار قائمُه حصيدا ، وعَاصِيه مُسْتَقِيدًا ، وقَالَ ألم يكُنْ نُهىَ عنِ المدِّ والتَّجريد ، فمالِي لا أَرَى إلا مدًّا وتَجريدا ، وعند ذلك أذعَنَ لفتحِ الأَبْواب . وتلا قَوْلَهُ تعالى (لكُلِّ أَجلٍ كِتاب) .

وكَذلِكَ لم نَأْتِ صَعْباً إلاَّ استَسْهَلَ ، ولا حثَثْنا مَطِيًّا إلا اسْتَعجل ولطَالما وقَفَ غيرُنَا على هذا البلد فَشَفَّهُ طولُ الانتظار ؛ ولم يَحْظَ منه إلا بمساءلة المنصب أحجَارَ الديار » .

وصف ناقة وجواد

«سِرْتُ وتحتَى بِنْتُ قَفْرةٍ لا يذهبُ السُّرى بجِماحِها ، ولا تستزيدُ الحادِىَ من مراحِها ، فَهِى طموحٌ بأَثْناءِ الزمام ، وإذا سارت بين الآكام قيلَ هذهِ واحدةٌ من الآكام . ولم تُسَمَّ جَسْرةً إلا أنها تقْطعُ عُرْض الفلاةِ كما يقطعُ الجِسْرُ عرْضَ الماء ، ولا سُمِّيَتْ حَرْفاً إلا لأنَّها جاءت لمعنى فى العزائِم لا لمعنى فى الأَفعال والأَسماء ، وخَلْفَها جنيبٌ من الخَيْل يُقْبِلُ

بِجِذْعٍ وَيُدبِرُ بصخْرةٍ ، وينظُرُ من عين جحْظةٍ ، ويَسْمَعُ بأُذنٍ حَشرَة ويَجْرى مع الريح الزَّعْزَعِ فيذَرُها وَقد ظهَر فيها أثر الفترَةِ . وما قِيدَ خلفها إلا وهو يهتدى بها فى المَسَالِك المضلَّةِ ، ويَطأُ على أثرها فَيرْقُمُ وجُوه البدُورِ بأشكالِ الأَهِلَّة . هذا واللَّيْلُ قد ألقى جرانَهُ فلم يَبْرح ، والكواكبُ قد ركَدَتْ فيه فلَمْ تَسْبَحْ ، وأنا أَوَدُّ لوزادَ طولُه ولم تَظَهرْ غُرَّةُ أَدْهَمِه ولا حُجُولُه ، فقد قيلَ إنه أَدْنَى لِلْبُعْدِ ، وأَكْتَمُ للأَسْرَار . ودَلَّ عليه القولُ النَبَوىُّ بأَنَّ الأَرض تُطْوَى فيه مالا تُطْوى فى النَّهارِ وما زِلْتُ أَسِيرُ حتى كادَ ينْضُو لونُ السَّوَاد ، وظَهَر لوْنُ السَّرْحان فأَغارَ على سَرْحِ السَّمَاء ، كما يُغيرُ السَّرْحَانُ على سَرْحِ النَّقارِ ، فعِنْدَ ذلكَ نَهلَت العينُ من الكَرى نَهْلةَ الطَّائِر ، ولم يَكُنْ ذلِكَ على ظَهْرِ الأَرضِ المطمئنةِ ، وإنما كانَ على الظَّهرِ السَّائِر » .

وصفُ بستان

قال : فَمِنْ ذلِكَ ما ذكرتُه فى وصْفِ بستانٍ ذَاتِ فَواكِه مُتَعدِّدةٍ :

« جنةٌ عَلتْ أَرْضُها أَنْ تُمْسِكَ ماءً ، وغَنِيَتْ يُنبُوعها أَنْ تَستَجْدِىَ سَماءً . وهِى ذاتُ ثمارٍ مُخْتَلِفَةُ الغَرابةِ ، وتُربَةٍ مُنْجِبة ، وما كلُّ تُربَةٍ توصَفُ بالنَّجابَةِ ، فَفِيهَا المشمُشُ الذى يَسبقُ غَيْرَهُ بقُدومِه ، ويَقْذِفُ أَيْدِى الجانِينَ بنُجومِه ، فهوَ يَسْمُو بِطِيبِ الفَرْعِ والنِّجَارِ ، ولو نُظِمَ فى جيدِ الحَسْناء لاشتَبَهَ بقِلاَدَةٍ مِن نُضَارٍ . وله زَمَنُ الربيع الذى هو أعدلُ

الأزمان . وقد شُبِّهَ بِسِنِّ الصِّبا فى الأَسْنَان . وفيها التُّفَّاحُ الذى دَقَّ جِلْدُه وَعَظُمَ قَدُّهُ ، وتَوَرَّدَ خَدُّه ، وطَابَتْ أَنفاسُه فَلاَ بَانُ الوادِى ولا رَنْدُه . وإذا نُظِرَ إليه وجد منه حظّ. الشمّ والنَّظَر ونِسْبتُه من سُرَرِ الغِزْلانِ أَوْلى من نِسبتِه إلى منابت الشَّجَر . وفيها العنبُ الذى هو أَكْرَمُ الثِّمارِ طينةً ، وأَكْثَرُها ألوانَ زِينة ، وأَوَّلُ غرسٍ اغترسَهُ نُوحٌ عليه السلام عند خُروجه من السفينة ، فقَطْفُه يجِيلُ بِكَفٍّ قاطِفِهِ ويُغْرِى بالوصْفِ لِسانَ واصفِهِ. وفيهَا الرُّمَّانُ الذِى هو طعَامٌ وشرابٌ ، وبه شُبِّهَتْ نُهودُ الكِعاب ، ومن فَضْلِهِ أنه لا نَوَى لهُ فَيُرْمَى نَواهُ ، ولا يَخْرُجُ اللُّؤْلُؤُ والمرجَانُ من فاكِهَةٍ سِوَاه . وفيها التِّين الذى أَقْسَمَ الله به تَنْويهاً بذكِره ، واسْتَتَر آدمُ عليه السلامُ بوَرَقِه إذْ كَشَفَت المَعْصِيةُ من سِتْرِه ، وخُصَّ بطُولِ الأَعْنَاقِ فَما يُرَى بها من مَيَلٍ فهو نَشْوةٌ من سُكْرِهِ ، وقَدْ وصف بأنه راقَ طَعْمًا ونَعُمَ جِسْماً ، وقيلَ هذا كَتِيفٌ مُلِئَ شَهْدًا ، لا كتيفٌ مُلِئَ عِلْمَا .

وفيها من ثَمراتِ النخِيل ما يُزْهى بِلَوْنِهِ وشَكْلِه ، ويَشْغَلُ بِلَذَّةِ منْظَرِه عن لذة أَكْلِه . وهو الذى فَضَلَ ذوَاتَ الأَفنان بعُرْجُونِهِ ، ولا تماثُلَ بينَهُ وبين الحلواءِ هذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى ماذا خَلَقَ الذين من دُونِهِ ؟

وفيها غَيْرُ ذلكَ من أَشْكَال الفاكِهَةِ وأَصْنَافِها ، وكُلُّها مَعْدُودٌ مِنْ أَوْسَاطِها لا مِنْ أَطْرَافِها ، ولَقَدْ دخلْتُها فاسْتَهْوَتْنى حَسَدا ، ولم أَلُمْ صاحِبَهَا على قولِهِ : لَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا » .

فتح بيت المقدس

على يد المظفر الناصر صلاح الدين

(سنة ٥٨٣ هـ)

« لو جُمِعَت العُصُور كُلُّها فى صَعِيدٍ واحدٍ لكَانَ هذا العَصْرُ عليها فاخِرا ، وفَاز بِسَبْقِ أَوائلِها وإن جَاءَ آخِرا ، ولَيْسَ ذلِكَ إلاَّ لحظوته بالدوْلة الناصريةِ التى كَسَتْهُ حِبَرًا ، وقَلَّدتُه دُرَرًا ، ودوَّنت له من المحامِدِ سِيرا ، وجعَلَتْ فى كل ناحِيةٍ مِن وجْهِهِ شمساً وقَمرا ، وقَيَّضَ الله لها من الخادِمِ وليًّا يوصِلُ يومهُ فى طاعَتِها بأَمْسِهِ ولا يُرى إلاَّ ومِنْ نفسه فى خِدْمتِها رقيبٌ عَلى نَفْسِهِ . وَطالما سعَى بينَ يدَيْهَا بِمسَاع تَغُصُّ بأَخْبارِها محافِلُ القَوْم ، ويُقَالُ له فيها ما ضَرَّكَ ما صَنَعْتَ بعْد اليوْم ، وقد سلفَتْ منها آياتٌ تتمايَلُ فى أَشباهِهَا وأَضرا بِها ، واسْتُؤْنِفَ لها اليوْمَ واحدةٌ تُدْعَى بأُمِّ كتابِها وهى فتح البيت المقدَّس الذى تفتحتْ له أبوابُ السماءِ ، كثرَتْ بأَحادِيثِ مَجْدِهِ كواكِب الظَّلْماء ، واسْتُرِدَّ حقُّ الإسلام ، وطالما سَعَتْ الهمم فى طلبِه بِالزادِ والماء .

ومِنْ أَحْسَن ما فَعَل أنه آنَسَ قِبْلَتَه الثانيةَ بقبلته الأُولى ، وأَطَالَ مِنه كل ما قَصَّرَتْهُ يَدُ الكُفْرِ وكَانتْ هى الطُّولى ، وبه صَحَّ لهذا البيت معنى اسْمِهِ ، وانتقل إلى الطهَارَةِ ونَزاهتِها عن الرِّجْسِ ووَضْمِه ، ولم يَحزْه الخادِمُ حتَّى طوَى ما حَوْلهُ من البلادِ المنجدَة والغائِرةِ وكان مركزًا

لدائرتِها ، فغادَرَهُ ، وهو طرَفٌ من أطْرافِ الدائرةِ . ولما شارَفَه نَظر منه إلى ظلةٍ من الظلَلِ ، ورأى بَلدًا قد استقَرَّ على مَتْنِ الجبَلِ مثل الجبل ، ويُطِيفُ به وَادٍ تَسْتَهْزِئُ عِصْمتُه بنُوَبِ الدَّهْرِ ، وقد انعطف على جوانبِه انْعِطَافَ الحبْوَةِ على الظَّهْرِ ، والمَسالِكُ إليه مع ذلِكَ ذاتُ تعاريجَ ومَعَارج ، وهِيَ ضيقَةٌ مُسْتَوْعرةٌ ، يُطْلَقُ عَلَيْها اسْمُ الطُّرُق ولا يطلق عليها اسْمُ المناهِجِ . فلما رآه قال هذا أُمْنِيَّةٌ لمن يَرَى ، وعُلِمَ حينئذ أنَّ كُلَّ الصَّيْدِ فِى جَوْفِ الفَرا ، إلاَّ أنَّ لِسَانَ حالِهِ خَاطَبَه وهو أَفْصَحُ الخِطاب ، وقَالَ امْدُدْ يَدَكَ فليس دُونَها من حجاب . وكَانَ قد بَرَز من السِّلاح فى لباس رائِعٍ مِن المَنَعَةِ ، وأخرج من السَّوادِ الأَعْظَم ما خَدَعَ العُيُونَ ، والحرْبُ خُدْعَةٌ ، وما تُمنَعُ رِقابُ البِلادِ بكثرةِ السَّوادِ ، ولا تُحْمَى بعَوَالى الأَسْرارِ ، بَلْ بعَوَالى الصِّعَادِ .

وفى يوم كذا وكذا خَيَّمَ المُسْلِمُونَ فى عقد دارِه ، ونَزَلُوا منه نُزُولَ الجارِ إلى جانبِ جارِه ، ثم ارْتَادُوا موقفاً للقتالِ ، وإن لم يكن هناكَ موقفٌ يقْرُبُ منالُه ولا يتسِعُ مجالُه ، واتَّفَقَ الرَّأيُ على لسانِ المنجنيقِ فى خُطْبَةٍ عُقَيْلِيَّةٍ أبلغ خطاباً ، وأدنى من المطلوب طِلاَبا ، وأنه إذا ضرب بعصاهُ الحجَرَ انبجستْ عُيُونُ أهلِه دماء ، كما انبجستْ عيون الحجر ماء . . . .

وكانتْ وجوهُ المُؤْمِنين فى هذا المقَامِ أحظى بلباس الإشراق وأتمَّ أَبْدُرًا ، والبُدورُ لا يكون تَمامُها فى المَحَاقِ ، فما منهم إلا مَنْ عرضَ نفسَه ليوم العرضِ ، ومشى إلى جنةٍ عرضُها السَّمَواتُ والأَرضُ ، حتَّى اتَّسَعَ المقَرُّ ، وحُرِّقَتْ أوعَارُ الخنادق ، وصَارَ الرجالُ لمنطقةِ السور كالمناطِق ،

ولم يستشهدْ مِنْهُمْ إلاَّ عددٌ يَسِيرٌ لا تدخُلُه لامُ التعريفِ ، وكانتْ أجنحةُ الملائكةِ مطيفةً بهم فأكرِمْ بالمطَافِ بِه وبالْمُطيفِ . وقد أَسْعَد اللهُ أُولئِكَ بالشهادَةِ التى هى الفوزُ الأَكْبَرِ ، وقرنَها بإدناءِ مَضَاجِعهمْ مِنَ الأَرْضِ المقدَّسَةِ التى هى أَرضُ المحشَر ، فَما يَسُرُّهُم أن يَعُودوا إلى الدنيا إلاَّ للاستزَادَةِ من ثوابِ الجهادِ ، وأَيْسَرُ ذَلِك أن أَرْوَاحَهُمْ فى حَوَاصِل طيرٍ خُضْرٍ تعلق من ثِمار الجنة إلى يوم المعادِ .

. . ولما رأى الكفَّارُ أن زئيرهم قد انقلب خُوارًا ، أذعَنَتْ أيديهم باستِسْلامِها ، وصانعت بالمال عَن الرقابِ واسْترقَاقِها ، وبالبَلدِ عن النفوس وحِمَامِها ، فأَبى السَّيفُ أن يَترُكَ رِقاباً تَغْذَى بِأُكُلِها . . . وأُذْكِرَ الخادِمُ أَنَّ سَلَفَ هؤُلاءِ انتزع هذا البلَدَ قَسْرًا ، وفتَكَ بمن كانَ به من المسْلِمينَ غَدْرًا ، وذلك ثأْرٌ قد ذَخَرَهُ الله لَكَ حتَّى تحظَى فى الآخِرةِ بثوابِهِ ، وتتجمَّلَ فى الدنيا بزينةِ أَثْوابِه ، والمسْلِمُ أَخُو المسْلم يأْخذُ بِدمِه ، وإن تطاولَتْ أمدادُ السِّنين على قدمِهِ . . . ولما تحقَّقَ العزمُ على ذَلِكَ أشارَ ذَوُو الرَّأيِ بقبول الفِدْيةِ المبذولَةِ ، وألاَّ يُحْمَلَ العدُوُّ على ما ليست نفسُه عليه بمَحمُولة ، فإنَّ النَّقْد إذا أُخْرِجَ صَارَ ذا أنيابٍ وأظفارٍ ، واسْتَضْرَى حتى يلتحق بالسِّباعِ الضَّوارِ ، وهَؤُلاءِ إذا رأَوْا عَيْنَ القتْل تجرَّدُوا للقِتَالِ ورَكِبُوا الأَهوالَ لِلنجاةِ مِنَ الأَهْوالِ . ومَنْ يُدْعَ إلى خُطَّةِ رُشْدٍ فَليقبَلْها ، ومن أَنْشِطَتْ لهُ عُقَلُ الأُمور فَلْيَعْقِلْهَا ، وعلى كُلِّ حالٍ فإنَّ الفديةَ للمسلمينَ أَرْغَبُ وأَمْوالٌ يُتَقَوَّى بِها عَلَى العَدُوِّ خَيرٌ مِنْ دِماءٍ تذْهَبُ . هذا وبالبَلد من أسارَى المسْلمين مَنْ حَيَاةُ أَحَدِهم بحياة كل نفس ومن

حُرْمته عند اللهِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعتْ عليه الشَّمْسُ ، ولا يُوازِى فَتْحُه عَنْوَةً أن يتعدى إليهم أضْرارُه ، ولا شَكَّ أنَّهُمْ يعاجَلُونَ بالقَتْل قَبْل أنَ تُدْخَلَ أفْطَارُه فرَأى الخادِمُ عِند ذلِكَ أنَّ الرَّأىَ مُشْتَرَكٌ ، وأنَّ له معتركاً كما أنَّ السَّيْفَ له مُعْتَرَكٌ . وتقرَّرَ تَسْليمُ البَلَدِ ودُمُوعُ أهْلِهِ قد خضَبتْ أحْدَاقَهَا وأقْرَحَتْ آماقَها . . .

لقد كان يومُ التَّسْلِيمِ عَرِيضَ الفخارِ زائِدَ العُمْرِ على عُمْرِ أبَوَيْهِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، واشْتُقَّ من اسْمِهِ مَعنى السَّلامَةِ للمسلمين والهلاكِ للكفَّار »

ذَمُّ المشيبِ

قال : ومن ذلك ما ذكرته فى فصل كتاب يتضمن المشيب :

« والعَيْشُ كُلُّ العيشِ فى سِنِّ الحداثة ، ومَا يأْتى بعدَها فلا يُدْعَى إلا بسنِّ الغثاثَةِ وليسَ بعد الأربعين من مصيف للذة ولا مَرْبع ، وهى نهاية القوة الصالحة منَ الطَّبائِعِ الأرْبع فإذا تجاوَزَها المرءُ أشفتْ ثمار عمره على خرصها ، وصَارَتْ زيادتُهُ كزيادة التَّصْغِيرِ[1] التى هى زيادة تدل على نقص ، وأصبَحَ بعد ذلك يدعى أبا بعد أن كان يُدْعى ابنا ، وتقمَّصَ ثوباً من المَشيب لا يَجرُّ ثوبه خيلاء ولا يزهى به حُسْنا . وإن قيل إن أحسن الثياب شعار البياض قيل إلا هذا الثوب فإنه مستثنى ، ويكفيه من الفظاعة أن ينظر الأحباب إليه نظَر القتال ولوْلاَ أنَّ الخمودَ بعدَه

(١) أى زيادة الياء للتصغير تدل على الإقلال من القدر .

لما اسْتُعيرَ له لفْظَةُ الاشْتِعالِ . ومن الناس من يدلس لونه بصبغة الخِضَاب ، وليس ذلك إلا حِدَادًا على فَقْدِ الشَّبَابِ . وهو فى فعله هذا كاذب ولا يخْفَى أُنْسُ الصادق من وحشةِ الكذَّاب ، وخداعُ النَّفْسِ أن تَسْلُو عَنْ بثره المعطَّلةِ وقصْرِه المشِيدِ ، ويحسنُ لها الخروج فى ثوب مرقَّعٍ ، وهى تزاه بعين الثوب الجديد » .

وصف بيان

«وله البيانُ الذى يُغضُّ من نَسَقِ الفريدِ ، ولا يُخْلِقُ نُضْرةَ لِباسِهِ الجديدَ ، وهو فوق كلام المجيدِ ، ودونَ القرآنِ المجيد ، وإذا اختصَر واصِفُه قالَ : إنَّه يَسْتَمِيلُ مَعْنَى سَمْعَ الطَّرُوبِ ، ويَسْتَحِقُّ وقَارَ القُلُوبِ ، ويتمثَّلُ آياتٍ بَيْضَاءَ مِنْ غير ضَمٍّ إلى الجيوبِ ، ويُرى فى الأَرْضِ غيرَ لاغِبٍ إذا مسَّ غيْرَهُ فَتْرَةُ اللُّغوب . ولا تزال الناسُ فى عِشْقِ معانِيه ضرباً واحدًا والعاشقون ضُروب . ولما وقفت عليه قُلْتُ سُبْحانَ مَنْ أعْطى سيدَنا فلم يَبْخَلْ ، وخَصَّهُ بِنُبُوة البيانِ إلا أنه لم يُرسَلْ ، ولولا أن الوحْىَ قد سُدَّ بابُه لقيل هذا بيان مُنْزَلْ » .

وَصْفُ القلم

قال : «ومِنْ ذلك ما ذكرتُه فِى فصل من كتابٍ يتَضَمَّنُ وصْفَ القَلَم »

«وقد أوحى الله تعالى إلى قَلَمِه ما أوحاهُ إلى النَّحل ، غير أنَّها

تأْوِى إلى المكانِ الوعْرِ ، وهو يأْوى إلى البيان السَّهْل ، ومِنْ شَأْنِه أن يجتنِى مِنْ ثَمرَاتٍ ذاتِ أرواح لا ذَاتِ أَكْمامٍ ، ويَخْرجُ مَن نفشاتِهِ شَرَاب مُختلِف المعْنَى ، ولا تَسْتَوِى نضارة هذا الثَّمر .

٢ ــ ضياء الدين معلم الإنشاء

نَصائِحهُ إلى الكُتَّاب

« من الوشى المرقوم »

« اعلمْ أنَّ الكاتبَ يَحْتَاجُ إلى التشبثِ بِكُلِّ فنّ ، والنظر فى كلِّ عِلْم وإرصاد السمع لمحاورَاتِ الناسِ ، فإنه لا يَعْدَمُ من ذلِكَ فائِدةً ، فإنَّ كلمَةَ الحكْمَةِ ضالةُ المؤْمنِ ، فحيث وجدها فهو أَحقُّ بها .

وقد تَتَبَّعْتُ أقوالَ النامِ فى مُحاورَاتِهم فَاستَفَدْتُ بذلِكَ فوائِدَ كثيرةً حتى من أَكَّارٍ وفَلَّاحٍ وأعجمى من الأَعجام الأَغتَام ومن يَجرى مجراهُم . وقد تَصْدُر كلمةُ الحِكمةِ من الجاهِلِ بمكانِها . وَرُبَّ رميةٍ من غير رامٍ . وعلى كلِّ حال فإن صاحِب هذه الصناعةِ ينبغى له أن يَعلَم ما تقولُه النادبةُ فى المأْتم ، وما تقوله الماشِطَةُ عندَ جَلْوةِ العَروس ، وما يَقُوله المنادى فى السوقِ على السِّلْعَةِ ، فدعْ ما وراءَ ذلكَ .

وليس فنُّ الكتَابةِ كغيرهِ من فُنونِ العِلم ، فإنَّ كلَّ عِلْم لهُ حاصِرٌ وضابطٌ ، ويرجع صاحبُه فيهِ إلى المسْطورِ . فترى المذْهَبِىَّ أو الجَدلِىَّ إمَّا أن ينقُلَ مسأَلةً يُسْتَفْتَى فيهَا وإمَّا أنْ يُجادِلَ فى مسأَلةٍ ، فَعليْهِ أن يُتقِن

نَقل المسْطورِ إن كان مذْهبيًّا ، ويجيدُ فى المجادَلةِ بتحسينِ الكلام إن كان جَدَلَيًّا فلذلِكَ تَرى النَّحْوىَّ فيما يدرسه فى عِلْم العَربيةِ وكذلك الحاسبُ والطبيبُ وغيرهما . وأما الكاتبُ فإنه لا حاصِرَ له فيما يحتاجُ إليه من فنِّ الكتابةِ ، لأنه مكلف أن يأْتى بما يقوله من ذات خاطِره . والمعانى المستخرجةُ من الخواطِر كعدد الرملِ إكثارًا والقطر إدرارًا ، فينبغى له على ذلك أن يطَّلعَ فى هذه العلوم جَميعِها ، ولا أُريدُ بذلك أن يكونَ عالِمًا ، فإنَّ هذا غيرُ ممكن وإنما ينبغى له أن يَشُمَّ رائِحةَ كلِّ عِلم ، أو يَتَشَبَّثَ منه بشىءٍ يدخُل فى صِناعَتِه والخطْبُ فى هذا كبير لكنْ وجدتُ خلاصةَ ما يحتاجُ الكاتِب إليه ثلاثة أشياء : الأَولُ حفظ القرآن الكريم ، والثانى حفظ ما يَنْبغِى له حفظُه من الأَخبار النبويَّةِ ، على أن الأَخبار لا يمكن الإحاطة بها بحِفْظِها كما يمكنُ الإحاطَةُ بحفظِ القرآنِ ، وإنما يأْخذُ منها ما يدخُل فى هذه الصِّناعةِ . وهذا يحتاجُ إلى فضْلِ معرفةٍ ، وثاقبِ نظر ، حتى يُؤْخذ منه ما يُؤْخذُ ويُتْرَكَ ما يترك .

وكنتُ أتعبتُ نَفْسِى زماناً فى ذلك حتى جمعتُ منه كتاباً يشتملُ على أكثر من ثلاثَةِ آلافِ خبرٍ من الأَخبارِ النبويةِ ، كُلُّها يُحتاجَ إليه فى أَسْبابِ الكتابةِ . وكُنْتُ ألزمُ مطالعةَ ذلكَ الكتاب لزوم المحتفلِ ، ولا أَزالُ فى مطالعته كالحالِّ المرتَحل حتى صارَ لدىَّ منضودا ، وبلسان قَلمى مَعْقُودًا . وكذلك ينبغى للمترشحِ لهذه الصناعةِ .

الثالث حفظ الأَشعارِ الكثيرةِ التى لا يحصرُها عَدد مما يكونُ كُلُّ بيتٍ منه فى الجودة بمنزلة قصيدةٍ من غيرِه . ومن النَّاسِ من ذهَبَ إلى

الإكثار مِن حفظِ الخطبِ والرسائِل لمن تقدمَه ، وأنا لا أرى ذلِكَ لأمرين : أحدهما أن لا يَعْلَقَ بالخاطِرِ شيءٌ مما سَبَقَ إليه غَيْرِى من أرْباب الكلام المنْثُورِ . الآخر أن المعنى فى الكلام المنثورِ إذا نُقِلَ إلى معنى فى كلام منْثُورٍ ، فرُبما يبقَى شيءٌ من ألفاظ المعنى الأوَلِ فيما يَصُوغُهَ الآخَرُ من ألْفَاظِه . ولَقَدْ حظَرْتُ عَلى نفْسِى أن أحْفَظَ شيئاً من رَسَائِلِ الناسِ وخُطبِهم حَتَّى إنِّى حَظَرْتُ على نَفْسِى حِفظَ شيءٍ منْ مقاماتِ الحَرِيرى وخُطَبِ ابنِ نُبَاتةَ وهُما عُكَّازَا أهْلِ الزَّمان من مُتَعاطِى هذه الصِّنَاعَةِ . وكُلُّ هَذا فَعَلْتَهُ فِرَارًا أنْ يَعْلَقَ بخاطِرِى شَيءٌ مِنْ تِلْكَ الألفاظِ المعانى .

فإن قيل : لَم مَنَعْتَ من حفظ الكلام المنثورِ وَحَثَثْتَ عَلَى حِفْظِ الأشْعَارِ والذى فعَلْتَ ذلِكَ من أجْلِهِ فى أحَدِ الطرفَيْنِ يَلْزمُكَ فى الطَّرَفِ الآخَرِ ؟ . فالجوابُ على ذلِكَ أنِّى أقُولُ أمَّا الشعر فإنه أكْثَرُ من الكَلَام المنثُورِ بأضْعَافٍ مَضاعفَةٍ . وليْسَ نِسْبَةُ أحَدِهما إلى الاخرِ نسبة قليل إلى كثير فضلاً عن نسبة كثير إلى كثير ، بَلْ هو بالنسبة إليه كالرَّقْمَةِ فى ذراعِ الدَّابةِ أو الشَّامَةِ فى جَنْبِ البَعيرِ . والكلامُ المنظومُ هو الذى كان ديوانَ أهْلِ الفصاحَةِ فى الزمَن القَديم . إذا عَدَدْتَ منهم مِائةَ شاعِرٍ لا يُمْكِنكَ أنْ تَعُدَّ خَطِيباً واحِدًا ، ثم اسْتَمرَّ الأمرُ على هذه الصُّورَةِ إلى زمانِنا هَذَا ، فاستغْرَقَ الكلامُ المنظومُ جميعَ المعانى ، فكانَ الأخْذُ مِنْهُ أوْلَى ، وهو الذى وصَفَ اللهُ أهْلَهُ بِأنَّهُمْ يَهِيمُون فى كل وادٍ .

والذى يعثنى على الإكْبَابِ على حِفظِ الشِّعْرِ دون الخُطَبِ والرَّسَائِلِ أنى إذا أخَذْتُ مَعْنًى من مَعَانِى الشِّعْرِ وأودَعْتُهُ رسَائِلى كُنتُ قد نَقَلْتُ من

ضِدٌّ إلى ضِدٌّ وهُو أخفَى وأستَرُ ولَوْ فعَلْتَ ذلِكَ فى الكَلامِ المنثورِ لكانَ نَقْلَ مِثْلٍ إلى مثْلٍ وذلكَ أشهَرُ وأظْهَرُ . فباعثى إذًا على حِفْظِ الأشعارِ دونَ الكلامِ المنثورِ كَثرةُ الشِّعْرِ واستِغْراقُهُ للمعَانى ولأنَّ الأخَذَ منهُ أستَرُ وأخْفَى.

وقد دَلَلْتُكَ أيُّها المترشح لهذِهِ الصِّناعةِ عَلَى ما دَلَلْتُ عليهِ نَفْسِى . وهذا من دأبِ ذَوِى الأَدْيانِ ، وبه وصَفَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ حَقِيقَةَ الإيمان .

واعْلمْ أن هَاهُنَا باعِثاً على ما نَصصْتُ عَليهِ هو أقْوى مِنَ الباعثينَ الأَولين وذلِكَ أنَّ مُرادِى من صناعَةِ الكِتابةِ إنما هو طريقُ الاجتهاد لا طريقُ التَّقْليدِ ، وإذا قَصَرتُ نَظَرى على النَّظَر فى مُكَاتباتِ من تَقَدَّم فكأنما أكُونَ قد حَذَوْتُ حَذْوَهُمْ ، وهَذا ليْسَ مِنْ شَانى ولاَ أرَبِى ، وإنما الأَرَبُ كلُّه فى طريقة عَذْرَاء لمْ تُفترَعْ ، ومَذْهَبٍ غَرِيبٍ لمْ يُبتَدَعْ .

حَلُّ الشِّعر

القِسْمُ الثانى : فى حَلِّ الشِّعْرِ ببعضِ لفظِهِ

وهذا هو الطريقةُ الوسْطَى ، وهو عِنْدى أصْعَبُ منالاً من الطريقة العُلْيَا التى هِىَ حَلُّ الشِّعْرِ بغيرِ لفْظِهِ ، وسَبَبُ ذلِكَ أنَّكَ إذا حَلَلْتَ شِعْرَ شاعِرٍ مُجيدٍ قَدْ نَقَّحَ أَلفَاظَه وَزَيَّنَهَا وأجَادَ فى ديباجةِ سبْكِها ، فإذا تَصَدَّيْتَ لِفَكِّ نِظَامِهِ فقَدْ أُلزِمْتَ أن تُؤاخِىَ لفظَهُ بِمِثْلِهِ فى الحسْنِ والجودَةِ ، وهذَا لا يَسْمُو إليه إلاَّ مَنْ غُذِى بلبان الفصَاحَةِ مرضَعا وعرَفَ

مواضِعَها فلم يجْهَلْ منها موضِعا وإذا لم يأْتِ بالمماثلةِ والمؤاخاةِ بين لفظِهِ ولفظ الشاعِرِ فقد كشَفَ عن عِرْضهِ لنائِلِه ، وعرَّضَ لحمه لآكِله . وإنْ حَلَّ الشِّعْرَ بغير لفظهِ فقد أمن هذه العورة . وقد أوردتُ ها هنا أمثلةً من هذا القسم ليكون قدوة للمتعلم ، فمن ذلك ما ذكرتُه فى وَصْفِ القَلَمِ فى فَصْلِ كتابٍ إلى بعض الإخوانِ وهو :

«وقلَمُه هو اليراعُ الذى نَفَثَت الفصاحَةُ فى رَوْعهوكَمُنت الشجاعةُ بين ضلوعه ، فإذا قال أراكَ كيف نَسَقَ الفريدَ فى الأجياد ، وإذا صال أراك كيفَ الاختلافُ بين الآسادِ . وله خَصائِصُ أخرى يُبْدعُها إبداعاً ، فإذا لم يأْت بها غيرُهُ تَصنعاً أتَى بها هوَ صنَاعا . فطَوْرًا يُرى نَحلَةً تُجنِى عَسَلا ، وطورًا يُرى شَفَةً تُمْلِى قُبلا ، وطوْرًا يُرى إماماً يُلقى دُروساً ، وطورًا يُرى ما شطَةً تجْلُو عَرُوسا . وطَوْرًا يُرى وَرقاءَ تَصدَحُ بينَ الأَوْرَاق ، وطورًا يُرى جَوَادًا مُخَلَّقاً بخَلُوقِ السِّباق ، وطورًا يُرى أُفعواناً مُطْرَقاً ، والعَجَبُ أنه لا يُزْهَى إلاَّ عند الإطراقِ ، ولطالما نفث سِحْرًا وجَلَب عطْرًا ، وأدار فى القرطاسِ خمرا ، وتصَرَّفَ فى وجوه المعانى فكَانَ فى الفَتحِ عُمر ، وفى الهدْىِ عَمَّارًا ، وفى المكْرِ عَمْرًا ، فلا تحظى به دَولة إلا فَخَرَت على الدُّوَلِ ، وغَنيتْ به عن الخَيْلِ والخَوَلْ ، وَقالَتْ أعْلى المماليكِ ما يُبْنَى على الأَقْلام لا على الأُسُل ، ولرُبَّما لقى هذا القول بإعظام النكيرِ وقالوا من أيْنَ للقَصَبَةِ الضَّعيفَةِ هَذا الخطَرُ الكبير . وللبهائم عُذرٌ أنْ لَا تَعرفَ من مَلاذِّ الأَطعمةِ غَيرَ الشَّعيرِ ، ولو أنصَفَ هَؤُلاءِ لَعَلِمَ أَنَّ القلَم هو مِزْمَارُ المعانى ، كما أَنَّ أَخاهُ فى النَّسَبِ هوَ مِزْمَارُ الأَغانى ، فهذَا يأْتى

بغرائِب الحِكم كما يأْتى ذَاكَ بغرائبِ النَّغَم ، وكلاهما شَىءٌ واحد فى الإطرابِ . غير أَنَّ أَحدَهُما يَلْعبُ بالأَسماع والآخرُ يَلْعَبُ بالألباب . »

فى هذا الكلام معانٍ مأْخُوذَةٌ من الشعر ، ومعانٍ مبتدعة لم يسبقنى إلها شاعِرٌ ولا كاتب ، فأَمَّا التى من الشِّعرِ ، فمِنْها قَوْلُ أَبى عبادة البحتُرى وهو :

فى نظامٍ مِنَ البلاغةِ ماشكَّ امرؤٌ أَنَّه نِظَام فَرِيدُ

ومنها قوله :

طعانٌ بأَطرافِ القوافى كأَنَّه طِعانٌ بأَطرافِ القنى المتكسِّرِ

ومنها قول أَبى تمام فى وَصْفِ شعْر :

عبقاتٌ بالسمع تُبدى وجُوهاً كُوجُوهِ الكواعِب الأَتْرابِ

ومنها قوْلُ أَبى الطيب المتنبى :

أَعلى المماْلِكِ ما يبنى على الأُسُلِ والطَّعْنُ عندَ مُحِبِّيهِنَّ كالقُبَل

وأَما الذى ابتدعتُه ولم أُسْبَقْ إليه فهو أَنى جَعَلتُ القَلَمَ مزمارَ المعانى كما أَن أَخاهُ فى النسب مزمارُ الأَغانى ، وذاكَ أَن كليهما قَصَبة ، ولِهذا جَعَلْتُ المزمارَ الموضُوعَ للغِناءِ أَخا القلم فى النسبِ ، وجَعلْتُ معانى هذا كَنَغَم هذا . وأَما الأَوصافُ الباقيةُ التى ذكرتُها فى كونِه نحلة وشَفَةً وإمامًا فإنِّى لم أَسْمَعْها وإن كُنْتُ قد سُبِقْتُ إليها . وهذه الأَوصاف المجموعة هاهُنا فى ذكر القَلَمِ لا تجدها فى كلامٍ آخر غير هذا الكلام » .

٣ ـ الناقِد

تحليلُ بعضِ آياتِ القرآن « التخلص »

قال فى المثل السائر :

«وفى القرآنِ الكريم مواضِعُ كثيرةٌ من ذلك كالخروج من الوعظِ والتذكير بالإنذارِ والبشارةِ بالجنةِ إلَى أمر ونهي ووَعْدٍ ووعيدٍ ، ومن مُحْكَم إلى مُتَشَابهٍ ، ومن صِفةٍ لنبيٍّ مُرْسَلٍ ومَلَكٍ منزل إلى ذمّ شيطانٍ مريدٍ وجبارٍ عنيدٍ بلطائِفَ دقيقةٍ ومعَانٍ آخِذٌ بَعْضُها برقَاب بعض ، فمما جاء من التَّخلص فى القرآن الكريم قولُهُ تَعالى :

(واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهِيمَ إذْ قَالَ لأَبيهِ وقومِه ما تَعْبُدونَ ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصناماً فنَظَلُّ لها عاكِفِينَ ، قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذ تَدْعُونَ أَوينفعُونَكُمْ أَو يَضُرُّون . قالوا بَلْ وجَدْنا آباءَنَا كذلِكَ يَفْعلُون ، قَالَ أَفرأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدون أَنتُمْ وآبَاؤُكمُ الأَقدمُونَ ، فإنهم عَدُوٌّ لى إلا رَبَّ العالمين ، الذى خَلقَنِى فهو يهْدِينِ ، والذى هو يُطْعِمُنِى ويَسْقِينِ ، وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِين ، والذى يُمِيتُنى ثم يُحيين ، والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خطِيئتِى يومَ الدين ، ربِّ هب لى حُكْمًا وأَلحِقنى بالصالِحين ، واجْعَلْ لى لِسَانَ صِدْقٍ فى الآخرينَ ، واجْعلْنِى مِنْ وَرثةِ جَنَّة النعيم ، واغْفر لأَبى إنه كانَ منَ الضَّالِين ، ولا تُخْزِنى يوْم يُبْعثُونَ ، يَومَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولاَ بنون إلاَّ منْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سَليم ، وأُزْلِفَت الجنَّةُ للمتَّقين ، وبُرِّزتْ الجحيمُ للغَاوِين ،

وقيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كنتُمْ تعبدونَ منْ دُونِ اللهِ هل ينصرونكم أو ينتصرون : فَكبكبوا فيها هم والغاوُون وجُنُودُ إبليسَ أجْمعُون ، قالوا وهم فيها يختصمون تَاللهِ إن كُنَّا لفى ضَلالٍ مُبين إذ نُسوِّيكُم بربِّ العالمين ، وما أضلَّنَا إلاَّ المجرمُون ، فما لنا من شافعِين ولا صديقٍ حميمٍ ، فلو أنَّ لنا كرَّةً فَنكون من المؤْمنين) .

هذا كلام يُسْكِرُ العقول ويُسْحِرُ الأَلباب ، وفيه كفايةٌ لطالِبِ البلاغةِ ، فإنه متى أنْعَمَ فيه نَظَرَهُ ، وتدبر أثناءه ومطاوى حكمتِه ، علم أنَّ فى ذلك غِنى عن تصفُّحِ الكتب المؤَلَّفةِ فى هذا الفن ، ألا ترى ما أحسَنَ ما رتَّبَ إبراهيم عليهِ السلام كلامَه معَ المشركين حين سألَهم أولا عما يَعبدونَ سُؤَالَ مقرر لا سُؤَالَ مُسْتَفْهِم ، ثم أنحى على آلهتهم فأَبْطَلَ أمرها بأنها لا تَضُرُّ ولا تنفع ، ولا تُبْصِرُ ولا تَسْمَع ، وعلى تقليد آبائِهم الأَقْدَمِينَ فكسره وأخرجه من أن يكونَ شُبْهَةً فضْلاً عن أنْ يكون حُجَّةً ، ثم أرادَ الخروج عن ذَلك إلى ذكر الإله الذى لا تجبُ العبادةُ إلا لَهُ ، ولا ينبغى الرجُوعُ والإنابةُ إلا إليه ، فَصَوَّرَ المسألة فى نفسِه دُونَهمْ بقولِهِ : « فإنهم عدوٌّ لِى » على معنى أنى فكرتُ فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادةً للعُدوِّ وهو الشيطان ، فاجتنبتها وآثرتُ عبادةَ من الخيرُ كُلُّهُ فى يَده ، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصَحُ بها نفسَه لينظرُوا فيقولوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نَصَح به نفسَه فيكونُ ذلك أدْعى لهم إلى القبول لقوله ، وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال فإنهم عَدُوٌّ لكمْ لم يكن بتلك المثابة فتَخلَّصَ عند تصوره المسألَةَ فى نَفسهِ إلى ذكر الله تعالى ،

فأجرى عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنِهِ ، وتعديد نِعمه من لَدُن خلقِه وإنشائه إلى حين وفاتِه مع ما يرجى فى الآخرةِ من رحمتِه ليُعْلَمَ من ذلك أن من هذهِ صفاتُه حقيقٌ بالعبادةِ وأوجبُ على الخلق الخضوعُ والاستكانةُ لعظَمتِه ، ثم خرج من ذلِكَ إلى ما يلائمهُ ويناسِبُه فدعا اللهَ بدعوات المخلصين ، وابتهلَ إليهِ ابْتِهَالَ الأَوَّابينَ ، لأَنَّ الطالبَ من مولاهُ إذا قدَّمَ قبلَ سُؤالِهِ وتَضَرُّعِه الاعترافَ بالنعمة كانَ ذلك أَسْرَعَ للإجابة وأنجحَ لحصولِ الطِّلْبَةِ ، ثم أَدْرجَ فى ضمنِ دعائِه ذِكرَ البعثِ ويوم القيامَة ومجازاةَ اللهِ تعالى من آمنَ به واتقاهُ بالجنة ، ومَنْ ضَلَّ عنْ عبادتِه بالنار فجمعَ بين الترغيبِ فى طاعتِه والترهيبِ من معصيتِهِ ، ثم سألَ المشركينَ عما كانوا يعْبُدون سؤالاً ثانياً عند معايَنَةِ الجزاء ، وهو سوالٌ موبِّخٌ لهمْ مُسْتَهْزِئٌ بهم ، وذَكَرَ ما يُدفَعُونَ إليه عند ذلك من الندم والحسرةِ على ماكانوا فيه من الضَّلالِ ، وتَمنِّى العودة ليُؤْمِنُوا . فانظر أيُّها المتأمل إلى هذا الكلام الشريفِ الآخذِ بَعضُه بِرقابِ بعض ، مع احتوائِه على ضروبٍ من المعانى ، فيخلص من كل واحدٍ منها إلى الآخر بلطِيفةٍ ملائِمةٍ حتى كأَنَّه أُفرِغَ فى قالب واحد ، فخرج من ذِكْرِ الأَصنام وتَنفير أَبيهِ وقومه عن عبادتهم إياها مع ما هى فيه من التَعَرى عن صفاتِ الإلهية حيثُ لا تَضُرُّ ولا تنفَعُ ولَا تبصرُ ولا تَسْمَعُ إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفاتِ الأُلوهيةِ فعظم شأنه ، وعَدَّدَ نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لا تصِحُّ إلاَّ لهُ ثم خرجَ

من هذا إلى دُعائه إياه وخضوعِه له ، ثم خرجَ منه إلى ذكر يوم القيامة وثوابِ اللهِ وعقابِه . فتدبر هذه التخلُّصَاتِ اللطيفَةَ المودَعَةَ فى أثناء هذا الكلام . وفى القرآنِ مواضِعُ كثيرةٌ مِن هذه التخلُّصَاتِ .

نقد لحماسة أبى تمام

قال فى « الاستدراك » :

« . . ولعمرى إنَّ الحماسة لدليلٌ على أنَّ أبا تمام كان عارفاً بأسْرارِ الألفاظ. والمعانى ، إلاَّ أن فيها مواضعَ يسيرةً لا أرضاها وأكثرهَا فى بابِ الهجاء ، فإنَّ ذلك البابَ لا يُضاهى غَيره من أبوابِ الكتابِ » .

ويقول : « فمن جملة ما جاء فى بابِ الحماسَةِ قولُ سِوارِ بن المضَرِّب :

فلو سَأَلتْ سراةَ الحىِّ سَلْمَى بأَنّى قد تَلوَّنَ بى زَمانى
لخبَّرها ذوو أَحْسَابِ قَوْمِى وأَعْدائِي فكلٌّ قد بَلاَنِى
بذَبِّى الذمَّ عن حَسَبِى بمالِى وزبونَات أَشوَس تيِّحان

فإنَّ زبُوناتِ وتيِّحان لو وقَعَا فى الفُراتِ لصارَ مِلْحاً أُجاجاً . وكذلك قد جاء فى باب الحماسةِ أيضاً . وهو قول تأبَّطَ شرًّا :

يَظَلّ بمَوْمَاةٍ ويُمْسى بغَيْرِها جحِيشاً ويَعْرَورى ظُهور المَسَالِكِ

فلفظةُ جحيش من هذا النَّسَق أيضاً .

وقد وردَ فى بابِ النَّسِيب قَوْلُ ابن هَرِم الكلابىّ :

فإنْ ذُكِرَتْ فاضَتْ لعَيْنَىَّ عَبْرَةٌ على لحيَتى نَثْر الجُمَانِ مِنَ العِقْدِ

فأما الذى أنكرتُه مِنَ البَيتِ الأَوَّلِ لِسَوَّارِ بن المضَرِّب وفى بيتٍ تـابَّطَ شَرًّا فإنَّه منْ وحْشِىِّ الألفاظ. الذى يَنْبُو عَنْهُ السَّمْعُ ويـجدُ لهَ كزازةَ. وتـأبَّطَ شرًّا ملومٌ فى استعماله لَفْظَةَ جحِيش بخلاف غيره ، لأَنَّ له مندوحة عنها فإنها بمعنى فَرِيد ، وفَرِيدٌ لفظةٌ حسنةٌ رائِقَةٌ ، ولو أَورَدَها بَدَلاً مِنْ جحيش لأَمِنَ معَرَّةَ جحيش فى قبح استعمالِه إياها . وأَمَّا الذى أنا أنكرتُه فى البيتِ الثالثِ الذى لابن هَرِم فإنه من جهةِ تـأْليفِ أَلفَاظِه ، لا لأَنَّها كريهةٌ عَلَى السَّمْع ، والكلام فى مثل هذا الموضِع طويلٌ « عريضٌ » ، ولو أَخذْتُ فى استقصائِه لا تسع المجالُ لكنه يوجَدُ فى كتابى الموسوم بالمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ، فإنه موضوع لبيان أسرار الأَلْفَاظِ. والمعانى ، وتفصيل أَقْسَامِها ، وما مَرَرتُ على هذا البيت المشارِ إليه لابن هَرِم إلا عَجِبْتُ من فقاهةِ أَبى تمامَ فى معرفةِ الشِّعْرِ كيف فَاتَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ؟ فإن قَولَ الشاعِرِ – عَلَى لِحْيَتى – مِنَ الكلام الضعيفِ ، والنِّظَامِ السَّخيفِ . وياليتَ شِعْرِى من يختارُ قَولَ هَذَا الشاعِرِ فى هذه القِطْعَة :

وأَسْتَخْبِرُ الأَخْبارَ من نَحْوِ أَرْضِها وأَسْأَلُ عَنْها الرَّكْبَ عَهْدُهُمُ عهْدِى

أَلَمْ يذق طَعْمَ هذا الكلام ، وذَاكَ الكلامِ ، ويُفَرِّقُ بينهُما فى الاختيار ؟ !

وليس لأبى تمام عُذرٌ فى اختيار مثلَ تلكَ الأبياتِ أو وقوعِها فى مُخْتَارِهِ لأنَّ هذا الذى أنكرته من القبيح الذى كانَ ينبغى له أن ينفيه ولا يختارُه ، ولو كانَ مضطرًّا لعُذِرَ لأنَّ مقامَ الضَّرورةِ أنْ يأْتِى على مُخْتارِ الشِّعْرِ بيتان أوْ أبياتٌ مختَارةٌ وفيها بيتٌ غَيرُ مُخْتارٍ ، إلا أنه لا يتمُّ المعنى فيها إلا به فيضطرّ حينئذٍ إلى إيداعِه فى جُملةِ المختارِ . وتلك الأبياتُ الأُولى ذاتُ الزُّبُونات والتّيحانِ لا ضَرورة فيها إلى اختيارِ الثالثِ منها لأنه لو اقتصرَ على البيتين الأوَّلَيْن لَتمّ المعنى ، وكذلك الأبياتُ التى أوردها لتأبط شرًّا فإنه لو نَفَى عَنْهَا الذى أنكرتُه لتمّ معْنَاهَا ، وهكذا يَجْرى الحُكْمُ فى البيتين المذكورين فى باب النَّسيبِ لأنَّ أحَدَهُمَا مالا تَعَلُّقَ له بالآخر » .

ثم يقول :

« وعلى ما ذكرتُه من أن فى الحمَاسَةِ مواضِعَ غيرَ مُخْتَارةٍ فإنَّ أبا تمام هو إمامُ الناسِ شعرًا ، ومَعْرفةً بالشِّعْرِ ، وإنْ شذَّ عنه شَاذَّةٌ فى الاختيار الذى اختاره فَمَن الذى يَسْلَمُ من ذلك ؟ . ولقد تأَمَّلْتُ شيئاً من الأشعَارِ التى اختار كتاب الحماسة منها ووَجَدْتُه دقيقَ النَّظَرِ فيما أخذ ومَا تَرك ، وسأذكر من ذلِكَ قطْعةً واحدةً حتى يُتبَيَّنَ ما ذكرتُه ونبهتُ عليهِ ، وذاكَ أنه أورد فى باب المراثى أبيات العُتبىِّ يرثى فيها بنيه وهى :

وقاسَمَنِى دَهْرِى بَنِىَّ مشاطِرًا ... فلمَّا تقضَّى شَطْرُهُ عادَ فى شَطْرِى

وكنت به أُكْنَى فأَصبحتُ كُلَّما ... كُنِيتُ به فاضتْ دموعى على نَحْرِى

فياليت أمى لم تلدنى وليتنى سَبَقْتُكَ إذ كُنَّا إلى أمدٍ نَجْرى
وقد كنتُ ذاناب وظُفْرٍ على العدى فأَصْبَحْتُ لا يخشونَ نابى ولاظُفْرِى

وهذه الأبيات قد اختارها من قطعة تَشْتملُ على ثمانيةِ أبيات ، فأَخَذَ أربعةً ، وتركَ أربعةً ، وقد ذكَرْتُ ما أخذهُ ، وأما الذى تَركَهُ فهو هذا :

لقد شَمِتَ الأعداءُ بى وتَغَيَّرَتْ عُيُونٌ أراها بَعْدَ مَوْتِ أبى عَمْرو
تَجرَّا عَلَىَّ الدَّهْرُ لمَّا فَقَدْتُهُ ولو كانَ حَيًّا لاجْتَرأتُ على الدَّهْر
أَسُكَّانَ بَطْنِ الأَرْضِ لَو يُقْبلُ الفِدا فَدَيْنَا وأَعْطَيْنَا لكم ساكنَ الظَّهْرِ
فياليت من فيها عليها وليت من عَلَيْهَا ثَوَى فيهَا إلى آخرِ الدَّهْرِ

وإذا وَقَفَ ناقِدُ الشِّعرِ على الأبياتِ بجُمْلتِها رأى الجميعَ مُخْتَارا ببديهةِ النظَرِ ، فإذا أَفْكَرَ وأَنْعَم نظرَه فى المأْخوذِ منها والمتروكِ عَلِمَ حِينئذٍ مقدارَ ما عند أبى تمام من نَقْدِ الشعْرِ والمعرفة به . أما البيت الأول مما أخذه فليس فى الأبيات ما يقُومُ مقامَهُ ، لأَنَّ معنَاهُ منفردٌ برأسِهِ ، وكذلِكَ البيتُ الثانى ، وأما البيتُ الثالثُ فإنه يقُومُ مقامَ بيتينِ مِنَ المتروكِ هُما : « أَسُكَّانَ بطنِ الأَرْضِ » و « فياليتَ مَنْ فيهَا عليها » وأما البيتُ الرابع فإنه يقومُ مقَامَ الأَولِ المتْرُوكِ .

فى الموازنة بين شاعرين

وذلك أن يأْخذَ الشاعرانِ فى سُلُوكِ طريقٍ واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتينِ ، كاتحادهما فى وصفِ شىءٍ من الأَشياءِ فيذهبَ

كلٌّ منهما إلى جهة مع اتفاقهما فى المأخذِ الذى يأخُذَانِه ، ولربما اختَلَفَا فى بَعْضِ المعانى واتَّفَقَا ، وذلك كما فَعَلَ البحترِى والشريف الرضىُّ فى وصفِ الذئبِ . فقال البحترىُّ :

وأَطْلَسَ مِلْءِ العينِ يَحْمِلُ زَوْرَهُ ... وأضلاعُه من جَانِبيْه شَوًى نَهْدُ
لهُ ذَنَبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَمُدُّهُ ... ومَتْنٌ كمتْنِ القَوْسِ أعوج مُنْأَدُّ
طواهُ الطوَى حتى استمرَّ مريرُهُ ... فلم يَبْقَ إلا الرُّوحُ والعظْمُ والجلْدُ
يُقضقِضُ عُضْلاً فى أَسِنَّتِها الرَّدَى ... كقضقضَةِ المقرورِ أَرْعَدَهُ البَرْدُ
سَمَالِى وبى مِنْ شدَّةِ الجوعِ ما بِه ... ببيداءَ لم تَحْسُنْ بها عيشةٌ رَغْدُ
كلانا بِها ذِئبٌ يحدِّثُ نفسَه ... بصاحبه والجَدُّ يُتعِسُه الجَدُّ
عَوَى ثم أقعى فارتجزتُ فهِجتُه ... فأَقبلَ مثلَ البرق يتبعه الرَّعْدُ
فأَوجرتُه خرقاءَ تحسَبُ رِيشها ... عَلَى كوكبٍ ينقضُّ والليلُ مُسْوَدُّ
فما ازدَادَ إلا جُرأةً وصَرامةً ... وأيْقنْتُ أَن الأَمر منه هو الجَدُّ
فأَتبعْتُها أُخرى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها ... بحيثُ يكونُ اللبُّ والرُّعبُ والحِقْد
فَخَرَّ وقد أَورَدْتُه مَنهَلَ الرَّدَى ... على ظَمإٍ لو أَنَّه عَذُبَ الوِرْدُ
وقُمْتُ فجمَّعْتُ الحصَى فاشتويتُه ... عَلَيْه وللرمضاءِ مِن تَحْتِه وَقْدُ
ونلْتُ خسِيساً مِنْه ثمَّ تَرَكْتُهُ ... وأَقْلَعْتُ عَنهُ وهُوَ مُنْعَفِرٌ فَرْدُ

وقالَ الشريف الرضى :

وعَارِى الشَّوَى والمنكبين من الطَّوَى ... أُتيح له باللَّيْلِ عارِى الأَشَاجع
أُغيبرَ مقدُودٍ من الليل ثوبُه ... أَنيس بأَطراف البلاد البلاقِع
قليلُ نُعاسِ العين إلا غيابةً ... تَمُرُّ بعَيْنَىْ صَائم القلب جائِع

إذا جُنَّ ليلٌ طاردَ النومَ جَفنُه ... ونَضَّ هدى ألحاظه بالمطَالِع
يراوِحُ بين الناظرين إذا التقى ... على النومِ أطْباقُ العُيونِ الهواجع
له خطفةٌ حذَّاءُ من كُلِّ ثُلةٍ ... كنَشْطَةِ أقْنَى ينفضُ الظلَّ واقِع
ألمَّ وقد كادَ الظلامُ تقضَّيا ... يُشرِّدُ فُرَّاط النجوم الطَّوالعِ
طوى نفسَهُ وانسابَ في شملةِ الدُّجَى ... وكلُّ امرئٍ ينقادُ طَوع المطَامِع
إذا فات شيءٌ سمعه دَلَّ أنفُه ... وإن فاتَ عينيه رأى بالمسامِعِ
تظَالَعَ حتى حكَّ بالأرضِ زورَهُ ... وراعَ وقد روَّعتَه غير ظَالِعِ
إذا غالبتْ إحدى الفرائسِ خطْمه ... تداركها مستنجدًا بالأكارِع
جريءٌ يَسومُ النفسَ كلَّ عظيمة ... ويمضي إذا لم يمضِ من لم يُدَافِعِ
إذا حافظ الراعِي على الشاةِ غَرَّهُ ... خَفِيُّ السُّرَى لا يُتَّقَى بالطلائِع
يخادعُه مستهزئاً بلحاظِـه ... خداعَ ابن ظَلْماءٍ كثير الوقائِع
ولمَّا عَوى والرَّمْل بيني وبينَهُ ... تيقَّن صحبي أنه غير راجع
تأوَّب والظلماءُ تضربُ وجهه ... إلينا بأذيال الرياح الزعازع
له الويلُ من مستطْعِمٍ عاد طُعْمةً ... لقوم عجالٍ في القِسِيِّ النوازعِ

وسأحكم بينَ الأبيات المتقدم ذكرها للبحترى وبين هذه الأبيات فأقول : أما البحترى فإنه أشعر فى وصف حالِه مع الذئب ، وأما الشريف الرضى فإنه أشعر فى وصف الذئب نفسِه ألا ترى أن البحترى لم يصف من الذئب شيئاً سوى عِظم قدره ، وطول ذنبه ، وتخريق أنيابِه ، وانطوائه لشدَّةِ جُوعِه ، وفى بعض هذه الأقْوَال مالا يزيدُ فى الذِّئبِ ولاَ ينقُص منه . والشريف الرضىُّ قد أبلغ فى وصْفِه حتى لم يغادِرْ شيئاً إلا ذكَرَه ،

ألا ترى أنه وصف خُدَعَهُ وانفرادَهُ بالبلقَع من الأَرْضِ ، وهى الأَرْضُ التى لا أَنيسَ بها ولا عمار ووصفَ قلةَ نومِه ، فإذا جنَّ الليل امتنع عن النوم كأَن بينَهُ وبين جَفنهِ طِرادًا أى قِتَالاً ، وهو مع ذلك يراوحُ بين ناظريه ، أَى ينام بهذا تارة وبهذا تارةً . وهذا المعنى وإن كان مأْخوذًا من حُميد بن ثور فى قوله :

يَنامُ بإِحْدى مُقْلَتَيْه وَيتقى بأُخرى المنايا فهو يقظَانُ راقِدُ

إلا أن فى قولِ الشريفِ الرضىّ – يراوحُ بين النَّاظِرَيْن – تعبيرًا حُلْوًا وبياناً حسناً ، ثم إنه وصف إدراكه وحِسَّهُ وتيقظهُ فقال : إذا فاتَ شىءٌ سمْعَهُ أَدركهُ بأَنفهِ فإن فاتَ عينَه رأَى بسمعِه . وهذا وصف بليغٌ لم يأْتِ مِثْلُه لغير الشريفِ ، وقد جمع فى أَبياتِهِ هذه بين أَشياء تَفَرَّقَتْ فى أَبياتِ غيره من شاعر بَدَوِىٍّ وقَرَوِىٍّ وزاد على ذلك ، لكنه قصَّرَ فى وصفِ حاله مع الذئب ، فهو إذًا والبحترى متكافئانِ لأَن الشريف أَجَادَ فى شىء قصَّر فيه البحترى ، والبحترىُّ أَجادَ فى شىءٍ قصَّر فيه الشريفُ ، ويكفى الشريفَ فضيلةً أَنْ يَزْحَمَ البحترىَّ بمَنكِبِه فى معنى من المعانى .

نقده لبعض رسائل الصابى

قال : فى « باب حسن المطَالع والابتداءات » .

« ومن الحذاقَةِ فى هذا البابِ أَن تُجْعَلَ التحميداتُ فى أَوائلِ الكُتُبِ السلطانيةِ مناسبةً لمعانى تِلْكَ الكُتُب ، وإنما خصصتُ الكتُبَ السُّلْطَانيةَ

دونَ غَيرها لأن التَّحامِيد لا تصدرُ فى غيرها ، فإنها تكونُ قد تَضمَّنتْ أمورًا لائِقةً بالتَّحميدِ كفتْح مُقْفَلٍ أو هزيمةِ جيش أو ما جَرَى هذا المجرَى. ووجْدتُ أبا إسحاق الصابئَ على تَقدمهِ فى فنّ الكتابة ـ قد أخلَّ بهذا الرُّكْنِ الذى هو من أوكدِ أركانِ الكتابةِ ، فإذا أتَى بتحميدةٍ فى كتابٍ من هذه الكُتُب لا تكُونُ مناسِبَةً لمعنَى ذلك الكتابِ ، وإنما تكونُ فى وادٍ والكتابُ فى وادٍ ، إلا ما قَلَّ من كُتُبِه .

فمما خالفَ فيه مَطْلَعُه معناهُ أنه كتب كتاباً يتضَمنُ فتحَ بغدادَ وهزيمة الأَتْرَاكِ عَنْها ، وكان ذلك فَتْحاً عظيماً فابتدأ بالتحميدِ فقال :

« الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ المَلِكِ الحقِّ المبينِ ، الوحيد الفريدِ العَلِيِّ المجيد الذى لا يوصف إلا بسَلْبِ الصفاتِ ، ولا يُنْعَتُ إلا بِرَفْع النُّعوتِ ، الأزلى بلا ابتداءٍ الأبدىِّ بلا انتهاءٍ ، القديم لا إلَى أمدٍ محدودٍ ، الدائِم لا إلى أجل معدود ، الفاعِلِ لا من مادةٍ استمدَّها ، ولا بآلَةٍ استعملَها ، الذى لا تدركُه الأعينُ بلحاظِها ، ولا تَحدُّهُ الألسن بألفاظِها ، ولا تُخْلقهُ العصورُ بمرُورِها ، ولا تُهرمُه الدهورُ بكرُورِها ، ولا تُضَارِعُه الأجسامُ بأَقْطَارِها ، ولا تجانِسُه الصُّورُ بأعراضِها ، ولا تُجاريه أقدارُ النَّظَرِ ولا الأشكالُ ، ولا تزاحمهُ مناكبُ القُرنَاءِ والأمثالِ ، بل هو الصمدُ الذى لا كُفْؤَ لهُ ، والفذُّ الذى لا توأم معه ، والحىُّ الذى لا تخْرمُه المنونُ ، والقَيُّوم الذى لا تشغلُهُ الشئُونُ ، والقديرُ الذى لا تؤوده المُعْضِلاتُ ، والخبيرُ الذى لا تعيبه المُشْكلاتُ » .

وهذه التحميدة لا تناسِبُ الكتابَ الذى افتتح بها ، ولكنها تصلُحُ أن

توضَعَ فى صَدْرِ مُصنَّفٍ من مُصَنَّفَاتِ أُصولِ الدين ، ككتابِ الشَّامِل للجوينى أو كتاب الاقتصاد أو ما جرى مجراهُما ، وأما أن توضع فى صَدْرِ كِتاب فتح فلا . وهو وإن أساء فى هذا الموضِع فقد أحسن فى مواضِعَ أُخَرَ . وذَاكَ أَنَّه كتبَ كتاباً عن الخليفةِ الطائِع رحمه الله تعالى إلى الأَطرافِ عند عودهِ إلى كُرسِيِّ مُلكه وزَوَال ما نزل به وبأَبيه المطيع رحمه الله من فادحَةِ الأَتْراكِ فقال :

« الحمد لله ناظم الشَّمْل بعد شَتاتِه وواصِلِ الحَبْل بعْدَ بتاتِه ، وجابِرِ الوهَنِ إذا تُلِمَ وكاشِفِ الخطْبِ إذا أَظْلَمَ ، والقاضى للمسلمين بما يَضُمُّ نشْرَهُمْ ، ويشُدُّ أَزْرَهُمْ ويُصْلِحُ ذاتَ بينهم ، ويحفظُ الأُلْفةَ عليهم ، وإنْ شَابتْ ذلكَ فى الأَحيانِ شوائب من الحدثَانِ فان تتجاوزَبهم لحدَّ الذى يُوقِظُ غافِلَهمْ ، ويُنبِّهُ ذاهِلَهُم ، ثُمَّ إنهم عائِدونَ إلى فَضْلِ ما أَوْلاهُم اللهُ وعوَّدهُم ووثَّق لهُم ووَعَدَهُم ، من إيمانِ سربهم وإعذابِ شَرْبِهم ، وإعزَازِ جانبِهمْ ، وإذلالِ مجانبهم ، وإظهار دينهم على الدين كله ولو كرِه المشركون » .

وهذه تحميدةٌ مناسبةٌ لموضُوعِ الكتابِ ، وإن كانت المعانى فيها مكررةً كالذى أنكرته عليه ، وعلى غيره من الكُتَّابِ ، وقدمتُ القولَ فيه فى باب السَّجْعِ » .

مراجع

فى دراسة ابن الأثير وأدبه

أولاً : كتب ابن الأثير

١ — « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فى جزاين . مطبوع

٢ — « الاستدراك فى الأخذ على المآخذ الكندية من المعانى الطائية » مطبوع بتحقيق الدكتور حفنى شرف

٣ — الوشى المرقوم فى حل المنظوم طبع مطبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ

٤ — رسائل ضياء الدين بن الأثير طبع بيروت

ثانياً : كتب معاصريه ومن لحقهم من القدماء

٥ — ابن الأثير عز الدين كتاب الكامل فى التاريخ

٦ — ابن الأثير عز الدين أتابكة الموصل

٧ — ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة طبع الحلبى بمصر

٨ — ابن أبى الحديد الفلك الدائر على المثل السائر طبع مصر سنة ١٣٢٩ هـ

٩ — ابن أبى شامة كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . طبع أكثر من مرة

١٠ — ابن جبير رحلته . طبع أكثر من مرة

١١ — ابن حجة الحموى ثمرات الأوراق . طبع مصر سنة ١٣٠٠ هـ

١٢ — ابن حجة الحموى خزانة الأدب . طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ

١٣ – ابن خلكان وفيات الأعيان. بتحقيق محيي الدين عبدالحميد
مصر سنة ١٩٥٢ م
١٤ – ابن الساعي علي بن أنجب الجامع المختصر في أخبار البشر. مطبوع
١٥ – ابن شاكر فوات الوفيات بتحقيق محيي الدين عبدالحميد.
طبع مصر سنة ١٩٥٢ م
١٦ – ابن شداد النوادر السلطانية. طبع مصر سنة ١٩٠٣ م
١٧ – ابن واصل مفرج الكروب. بتحقيق الدكتور الشيال.
طبع مصر
١٨ – أبو الفدا تاريخ المختصر. طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ
١٩ – السبكي – تاج الدين عروس الأفراح. طبع بولاق بمصر سنة ١٣١٧ هـ
٢٠ – الصفدي – صلاح الدين نصرة الثائر على المثل السائر. مخطوط
٢١ – القلقشندي صبح الأعشى. طبع دار الكتب
٢٢ – النويري نهاية الأرب
٢٣ – ياقوت الحموي معجم الأدباء
٢٤ – اليافعي مرآة الجنان. ط حيدر آباد سنة ١٣٤٠ هـ
٢٥ – يوسف بن قزاوغلي مرآة الزمان ج ٨. ط حيدر آباد

ثالثًا : من دراسات المحدثين

٢٦ – أحمد أحمد بدوي د. الحياة العقلية في مصر في عصر الأيوبيين
والمماليك. طبع مصر سنة ١٩٥٤
٢٧ – جان سوفاجيه دمشق الشام. مترجم
٢٨ – حافظ طوقان الشرق العربي قبيل الغزو المغولي
٢٩ – حسن إبراهم د. (مترجم) سيرة القاهرة ؛ لاستانلي لابتول
٣٠ – محمد زغلول سلام ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد.
طبع نهضة مصر سنة ١٩٥٦

٣١ – سليمان صائغ — تاريخ الموصل . ط بيروت سنة ١٩٢٨ م
٣٢ – محمد ياسين الحموى — دمشق فى العصر الأيوبى . ط . دمشق سنة ١٩٤٦
٣٣ – عبد اللطيف حمزة — أدب الحروب الصليبية . دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٤٩
٣٤ – عبد اللطيف حمزة — الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى طبع مصر سنة ١٩٤٧ م
٣٥ – محمد كامل حسين — الشعر المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك طبع مصر